النزعة التأملية في تجربة درويش في أعماله الأخيرة (1995-2009)

أ.م.د. معاذ عبد الله حامد إشتية
تخصص: الأدب والنقد
جامعة الاستقلال/أريحيا/فلسطين

النزعة التأملية في تجربة درويش في أعماله الأخيرة(1995-2009)

أ.م.د. معاذ عبد الله حامد إشتية[1]/ فلسطين
تخصص: الأدب والنقد
جامعة الاستقلال/أريحيا/فلسطين
moath.shtiah@paas.ps

محور البحث/ المحور الثالث/ الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية والحجاج

The Contemplative Tendency In The Last Poetic Experience Of Derweesh (1995-2009)

DR.MUAATH ABEDALULAH EHTAYA
Scientific specialization: literature and criticism
Al-Istiqlal University, Jericho, Palestine
moath.shtiah@paas.ps

[1] . أ.م.د. معاذ عبد الله حامد إشتية، أستاذ جامعي، دكتوراه في تخصص الأدب والنقد، يعمل في جامعة الاستقلال/أريحيا/فلسطين، له بحوث علمية منشورة في مجلات علمية محكَّمة، وله مشاركات علمية في المؤتمرات العلمية الدولية والندوات.

Research focus: literary and critical studies

الملخص :

يتناول هذه البحث النزعة التأملية في أعمال درويش الأخيرة ، فقد شاعت هذه النزعة بصورة لافتة منذ ديوانه " لماذا تركت الحصان وحيدا" 1995م،وارتبط شيوعها ببروز نزعة (الأنا)وحرص الشاعر على صبغ أشعاره بطابع إنساني وحداثي ؛ إذ جاء هذا البحث يحدد المنطلقات التي اتصلت ببروز هذه النزعة ، حيث بيّن استجابة درويش لصوت الذات حرصه على تطوير نتاجه الإبداعي ومنحه بعدا إنسانيا ، من منطلق وعيه بالمفهوم الأوسع للشعر .

وتناول البحث موضوعات التأمل كما بدت في هذه المرحلة من مسيرته الإبداعية ؛ فقد جاء التأمل في أشعاره على النحو الآتي ؛ تأمل الماضي ، وتأمل الحب ، وتأمل الحياة والموت ، وتأمل الطبيعة ، وتأمل الذات .

وقد سار تأمل درويش الماضي في اتجاهين ؛ فهو تارة يعبر عن حنينه له بوصفه يمثل مرحلة العيش في الوطن ومسرح الطفولة، وتارة أخرى يعبر عن إحساسه بالألم؛ بسبب ما آلت إليه الأمور بعد فقدانه للوطن .

ويطرق الحب مخيلة درويش فيكون تعبيرًا عن الحرمان منه حينا، و بحث عن المعنى الأعمق له وإيغالٌ في أسراره حينا آخر، والمتمعن في تأمله للحياة والموت يجد أنه ينقل إحساسه بقرب الأجل تارة ، ويحاول إلى إبراز فلسفته منهما تارة أخرى، ويسعى إلى التحايل على الموت بالحياة تارة ثالثة .

وفي تأمل درويش لبعض عناصر الطبيعة إظهار لافتتانه بالجمال ، وانحياز لمرابع الطفولة والمصادر الأولى للإلهام .

أما في تأمله لذاته ، فقد بدا ـ في ذلك ـ أكثر استجابة لنزعاته الإنسانية ، كما كان أكثر حرصا على التعبير عن ذاته الشعرية ورصد أحوالها وتطلعاتها .

الكلمات المفتاحية : النزعة، التأمل ، درويش، التجربة الشعرية، الأعمال الأخيرة

Abstract

The Contemplative Tendency In The Last Poetic Experience Of Derweesh (1995-2009)

DR.MUAATH ABEDALULAH EHTAYA
Scientific specialization: literature and criticism
Al-Istiqlal University, Jericho, Palestine

Research focus: literary and critical studies

moath.shtiah@paas.ps

This research deals with the contemplative tendency in the last works of Derweesh. This tendency became widespread in a noticeable way since his collection of poems “Why Did You Leave The Horse Alone?” (1995). Its widespread was connected with the emergence of the (ego) tendency. The poet takes care to imbue his poems with a human and modern stamp. This research defines the starting points which were connected with the emergence of this

tendency. It indicated the response of Derweesh to the voice of the self and his attention to develop his creative output and to grant it a human dimension from the starting point of his awareness of the wider concept of poetry.

The research dealt with the topics of contemplation as they appeared in this stage of his creative march. Contemplation in his poems came as follows: contemplating the past, contemplating love, contemplating life and death, contemplating nature, and contemplating the self.

The past contemplation of Derweesh went in two directions. He sometimes expresses his yearning for it as being representing the stage of living in the homeland and the theatre of childhood, and sometimes his expresses his feeling of pain because of what the matters ended up in after his loss of the homeland.

In Derweesh's contemplation of love, there is an expression of deprivation of it sometimes, and a search for the deeper meaning of it and delving in its secrets at another time.

The one who scrutinizes his contemplation of life and death finds that he carries his sensation of the nearness of the moment of death sometimes , and he tries to make prominent his philosophy of both of the them at another time, and he seeks to deceive death by life at a third time.

In Derweesh's contemplation of some of the elements of nature, there appears his enchantment by beauty and his bias to the playgrounds of childhood and the first sources of inspiration.

As for his contemplation of himself, he is more responsive to his human tendencies, and also he was more careful to express his poetic self and observe its conditions and its anticipations.

المقدمة:

يتناول هذه البحث النزعة التأملية في أعمال درويش الأخيرة ، فقد شاعت هذه النزعة بصورة لافتة منذ ديوانه " لماذا تركت الحصان وحيدا" 1995م،وارتبط شيوعها ببروز نزعة (الأنا)وحرص الشاعر على صبغ أشعاره بطابع إنساني وحداثي ؛ إذ جاء هذا البحث يحدد المنطلقات التي اتصلت ببروز هذه النزعة ، حيث بيّن استجابة درويش لصوت الذات حرصه على تطوير نتاجه الإبداعي ومنحه بعدا إنسانيا ، من منطلق وعيه بالمفهوم الأوسع للشعر .

وتناول البحث موضوعات التأمل كما بدت في هذه المرحلة من مسيرته الإبداعية ؛ فقد جاء التأمل في أشعاره على النحو الآتي ؛ تأمل الماضي ، وتأمل الحب ، وتأمل الحياة والموت ، وتأمل الطبيعة ، وتأمل الذات .

وقد سار تأمل درويش الماضي في اتجاهين ؛ فهو تارة يعبر عن حنينه له بوصفه يمثل مرحلة العيش في الوطن ومسرح الطفولة، وتارة أخرى يعبر عن إحساسه بالألم ؛ بسبب ما آلت إليه الأمور بعد فقدانه للوطن .

ويطرق الحب مخيلة درويش فيكون تعبيرًا عن الحرمان منه حينا، و بحث عن المعنى الأعمق له وإيغالٌ في أسراره حينا آخر، والمتمعن في تأمله للحياة والموت يجد أنه ينقل

إحساسه بقرب الأجل تارة ، ويحاول إلى إبراز فلسفته منهما تارة أخرى، ويسعى إلى التحايل على الموت بالحياة تارة ثالثة .

وفي تأمل درويش لبعض عناصر الطبيعة إظهار لافتتانه بالجمال ، وانحياز لمرابع الطفولة والمصادر الأولى للإلهام .

أما في تأمله لذاته ، فقد بدا ـ في ذلك ـ أكثر استجابة لنزعاته الإنسانية ، كما كان أكثر حرصا على التعبير عن ذاته الشعرية ورصد أحوالها وتطلعاتها .

أهمية البحث :

تبرز أهمية البحث في كونه يتناول النزعة التأملية في أعمال درويش الأخيرة ؛ التي تبدأ منذ ديوانه " لماذا تركت الحصان وحيدا " 1995م وتنتهي بديوانه " لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي " 2009م ، وهي تتصل بأهم مرحلة في مسيرة درويش الإبداعية ؛ إذ تتماز عن المراحل السابقة بسمات وخصائص على مستوى البناء الفني ؛ فدرويش راح في هذا المرحلة يتبنى اتجاها شعريا ذا بعد إنساني ، كما أصبح في هذه المرحلة أكثر استجابة لصوت الذات، وأضحى مشغولا بتطوير مشروعه الشعري اعتمادا على العناصر الإبداعية بعامة ، واللغة الفنية بخاصة.

وهكذا ، ظهرت النزعة التأملية بصورة جلية في أشعار هذه المرحلة ، من هنا ، جاءت هذه الدراسة تسلط الضوء على هذا الاتجاه الشعري، عبر تحديد منطلقاته وبيان موضوعاته، وتحليل النصوص الشعرية التي تعنى به .

مشكلة البحث وتساؤلاته :

يثير البحث الأسئلة الآتية :

1. ما هي منطلقات الاتجاه التأملي في أشعار درويش التي تتصل بهذه المرحلة ؟
2. ما هي موضوعات التأمل في أشعار هذه المرحلة ؟
3. كيف تجلت النزعة التأملية في أشعار هذه المرحلة ؟

منهج البحث :

يعتمد الباحث في دراسة هذه الظاهرة على المنهج الوصفي التحليلي في سبيل إبراز موضوعات النزعة التأملية، وما يتصل بكل واحدة منها من فكر وفلسفة.

أقسام البحث :

قسم البحث في إطار الإجابة عن تساؤلاته إلى محورين :

ـ المحور الأول: منطلقات النزعة التأملية .

ـ المحور الثاني: موضوعات النزعة التأملية .

المحور الأول : منطلقات النزعة التأملية في شعر درويش :

مدخل تأسيسي : مفهوم التأمل :

إن الباحث في كلمة التأمل يجد أنها جاء تتحمل دلالات عدة؛ ففي اللسان جـــاءت تـــعني" التثبت؛ تأمل الرجل في الأمر تعني تثبت ونظر"[1]،وتأمّل في الوسيط تعني "تلبّث في الأمر النظر، وتأمل الشيء وفيه ؛ تدبّره وأعاد النظر فيه مرة بعد أخرى

[1] .ابن منظور ت(711ه)، لسان العرب، دار صادر ، بيروت ، ط1، د.ت ، مادة (أمل).

ليستَيقنه"[1]،والتأمل من منظور علم النفس يقوم على رصد ما يتفاعل في النفس واسترجاع الخبرات الشخصية والأفكار والمشاعر وتحليله[2].

وإن شيوع ظاهرة التأمل في الشعر الحديث لا يعني ارتباطها بالحداثة الشعرية وحدها ، فقد ظهر التأمل في شعرنا العربي القديم ؛ فهناك من الشعراء من راح يتأمل في الوجود والحياة والموت من أمثال أبي العلاء المعري؛ الذي يعد واحدا من رواد الاتجاه التأملي في الشعر العربي ؛ وقد اعترف درويش بأن أدب المعري واحد من مصادره الثقافية ؛ مع أنه يرى أن حبه لأدب المعري جاء في مرحلة متأخرة ، يقول:" لم أكن أحب دائما أن أقرأ المعري ، أقرأه اليوم ، واكتشف فيه شيئا غير الحكمة "[3].

منطلقات الاتجاه التأملي في شعر درويش:

إن الباحث في شعر درويش على امتداد تجربته الفنية يجد أنّ شعره قد مرّ بتحولات على مستويي الشكل والمضمون ؛ من هنا ، فهو لم يسلك اتجاها واحدا في شعره ؛ ولعل ذلك يتصل بإدراك ووعي غير عاديين لمفهوم الإبداع ؛ فالشاعر يجب أن يطور نتاجه الإبداعي ؛ لأن هذا التطوير ينسجم مع رسالة الفن ومفهومه ، وهو لا بد أن يبتعد عن تكرار الذات في ظل التغيرات التي تطرأ على الواقع ،إضافة إلى التحولات التي تطرأ على ذات الشاعر ؛ وهي تحولات لا يمكن التغافل عنها ، أو تجاهلها ، وربما هذه الذات في ظاهرها تختص بالمبدع ، لكنها في الحقيقة ذات إنسانية ؛ فالشاعر قبل كل شيء هو إنسان مرهف الحس ؛ اتخذ من اللغة الشعرية وسيلة للتعبير عن رؤيته الوجود والحياة ، وكما أن الشاعر يمكن أن يُغرق نفسه بالتعبير عن المجتمع الذي ينتمي إليه ، عبر نقل أوجاعه وآماله وأحلامه ، ففي المقابل، يمكن أن يخلد إلى ذاته ، لنقل أوجاعها وآمالها وأحلامها ،والارتداد إلى الذات يمكن أن يتصل بأسباب كثيرة ، أبرزها ؛ طغيان هموم الذات على الهم الجماعي ، واستجابة المبدع للنزعات الإنسانية التي تتفاعل في نفسه.

وهكذا ، فإن درويشا في المرحلة الأخيرة ؛ الممتدة من (1995– 2009م) بدا يقع تحت ضغط الهموم الذاتية؛ والذاتية هنا ، ليست بمعنى الشخصية البيوغرافية فحسب، بل هي بمعنى التجربة والفكر[4]، إضافة لذلك فقد صار أكثر استجابة للنزعات الإنسانية التي تتفاعل في نفسه ؛ وقد تجسد ذلك في شيوع النزعة التأملية في شعره الذي اتصل بهذه المرحلة .

وقد وصف درويش قصائد هذه المرحلة بقوله :" إنّ قصائدها تقاوم قصائدي القديمة ، ولكنها كلّها مشروع شعري متكامل...إنها قصائد تثير حاسة الانتباه الشديد ضد التقليد.. إنها

---

1 الوسيط ، مادة (أمل).

2 الجردي، وحدة أمين: أدب التأمل عند المنفلوطي دراسة في نصوص النظرات والعبرات ،دار الفكر اللبناني،ط1، 2005م،ص17.

3 من حوار أجراه مع درويش عباس بيضون في جريدة " السفير " اللبنانية ، 2003/11/12م.

4 وتد ، عايدة خليل فحماوي: في حضرة غيابه " تحولات قصيدة الهوية " في شعر محمود درويش، مجمع القاسمي للغة العربية ، مكتبة كل شيء ، حيفا ، 2013م ، ص200.

تتعامل مع الراهن ، وتسعى إلى أرض لغوية صلبة تحوّل الراهن إلى ماضٍ، وهي تعالج الهم العام، من دون سقوط النص الشعري في الحدث الذي كتبت عنه القصيدة"[1].

ولا شك أن درويشا كان يطمح إلى أن يتجاوز شعره حدود قضيته ، فهو كان يحلمُ أن يكون شاعرا مختلفا متميزا ، يطلق العنان لخياله ، ويسير وراء انفعالاته وأحاسيسه ؛ يتأمل الماضي حينا ، ويحلق إلى أبعد مدى ، يتأمل الليل والندى ويرعى الشمس ويتتبع الجمال حينا آخر ، يقول في قصيدة " إذا كان لا بدّ" [2]:

إذا كان لا بدّ من شاعرٍ مختلفٍ
فليكنْ رعويَّ الحنين ، يُجعّدُ ليلَ الجبال
ويرعى الغزالةَ عندَ تخوم الخيال . ولا يأتلفُ
مع شيء سوى حسّه بالمدى والندى والجمال.

والمعروف أن اسم درويش في بدايات مسيرته الشعرية ارتبط بظاهرة أدبية أطلق عليها غسان كنفاني أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ؛ إذ انطوت تسمية هذا الأدب على أساس وظيفته التي تبدأ وتنتهي بالفعل المقاوم ، كما أسند إلى هذا الشعر تحرير الأرض من الاحتلال ، وأخذ هذا الشعر يعبر عن صوت جماعي يتجاوز الأسماء المفردة الخاصة بالشعراء [3].

وتجدر الإشارة إلى أن درويشا في المراحل اللاحقة من مسيرته الإبداعية أخذ يضيق ذرعا بهذا اللقب ،الذي ارتبط بشخصيته الإبداعية بوصفه " شاعر المقاومة "؛ إذ عبَّر عن رفضه لهذا اللقب؛ وقد رأى أنه لا يجوز اختصار القول الشعري على وظيفة محددة ؛ إنما هناك وظائف أخرى للشعر كالحـــب والموت ومساءلة المجهول ، كما أنّ الشعر يجب أن يكون كونيا يتأمل أحوال الإنسان في جميع الأمكنة والأزمنة[4].

وإذا كان درويش قد سلك اتجاها جديدا في الشعر ، فإن ذلك لا يعني أنه تخلى عن فلسطينيته كما يزعم بعض النقاد ، وقد عبر درويش عن ذلك قائلا: " الرأي النقدي يحاول أن يجرّد الشاعر الفلسطيني من شعريته ليبقيه معبّرا عما يسمى مدونات القضية الفلسطينية ،.. طبعا أنا فلسطيني ، وشاعر فلسطيني ، لكن لا أستطيع أن أقبل بأن أعرّف بأنني شاعر القضية الفلسطينية فقط ، وبأن يدرج شعري في سياق الكلام عن القضية فقط وكأنني مؤرخ بالشعر لهذه القضية[5].

---

1 النجار، مصلح : التركيب اللغوي للصورة الشعرية عند محمود درويش ، وزارة الثقافة ، عمان، ط1، 2007م ،
ص102، نقلا من حوار وأعدّه محمود عبدالكريم مع محمود درويش ، ثم بثه التلفزيون العربي السوري بتاريخ
1997/11/1م.

2 درويش، محمود: لا أريدُ لهذي القصيدةِ أن تنتهي، رياض الريس للكتب والنشر،ط1، 2009م، ص99 .

3 درّاج، فيصل: ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش، مجلة الكرمل، عدد90 ، 2009م، ص54.

4 نفسه : ص55 .

5 وازن ، عبده : الغريب يقع على نفسه، حوار مع الشاعر محمود درويش، دار رياض الريس، ط1، بيروت،

وتحمل المقاومة لدى درويش مفهوما يتجاوز المفهوم الذي ارتبط بها ؛ إذ يقول : " علينا أن نفهم المقاومة بمعناها الواسع، وليس الضيق " [1]، والمقاومة في إطارها السياسي تشكل شكلا من أشكال الصراع في حياة الإنسان ، التي تقوم على صراع مستمر من أجل البقاء فهناك إضافة لصراع الإنسان مع عدوه صراعات أخرى ، مثل الصراع الداخلي بين العقل والقلب في إطار ما يعرف بنداء الغريزة"[2].

ويلاحظ في المرحلة المتأخرة من مسيرة درويش الإبداعية شيوع (الأنا) ؛ حيث جاءت أشعاره تحمل صوت الشاعر ببعده الذاتي والفردي الذي يعبر عن رؤياه الخاصة واتجاهه الفكري والفلسفي والتأملي حول كثير من القضايا التي شغلت الإنسان ، كالقضايا المتصلة بالوجود والكون والذات والموت والحياة والمرأة [3].

وقد عبّر درويش صراحة عن استجابته إلى النزعات الذاتية التي تتفاعل في نفسه، حيث يقول : " أنا شديد الانتباه لهذه المسألة ، وإلى الالتفات إلى صوت الذات، صوت الأنا، وليس بمعنى الأنا الضيقة؛ فالأنا تحتوي في داخلها أكثر من أنا، فهي تتشظى، وعلى الشعر أن ينطلق في إصغاء دقيق للأنا في تفاعلها مع الأنوات الأخرى"[4] .

ويبرز المنفي بيئة ملائمة تبعث في نفس درويش نزعة التأمل ، ففي تأمله ينقل إحساسه بجمال الأشياء من جهة ،ويعبر عن حرمانه منها من جهة أخرى:" في المنفي تدريب على التأمل في ما ليس لك ، وإعجاب بما ليس لك ، فالمنفي يهذّب الجسد ، يفتنك جمال الشكل، ولو كان المعنى ناقصا ، فالكمال هو وعي النقصان ، تماثيل تمجد الماضي وتماثيل تتوثب للقفز عن عاطفة الهوية إلى هوية العاطفة، وتماثيل تحرّر الغد من الجماليات وتحرر الطبيعة من نظام المخيلة الصارم، الجمال هو العُلوّ"[5].

ولا شك أنّ اتجاه درويش في شعره نحو التأمل يتصل برؤية جديدة للشعر تنطلق من وجوب تعبيره عن ذات المبدع وما يتفاعل في مكنوناتها ، يقول درويش : " أنا الآن في مرحلة أنظف القصيدة مما ليس شعرا" [6]، من هنا ، يستغرب درويش من محاولات النقاد الذين يريدون أن يفرضوا سلطتهم عليه عبر تحديد ملامح طريقه الفني ورسم معالمه ، ويرى أنهم أنكروا عليه اتجاهه الجديد ، واتهموه بخيانة قضيته ، وقد بدوا لا يتفهمون شعره إلا في الإطار السياسي الملتزم ،ولم يتفهموا أنه صاحب مشروع شعري ، يقول في قصيدة " اغتيال "[7]:

مجلة دراسات العلوم الاسلامية

2006م، ص 69.

[1] نفسه:ص113.

[2] نفسه : ص 67.

[3] المهداوي ، صفاء عبدالفتاح : الأنا في شعر محمود درويش، دراسة فنية سسيوثقافية من (1995–2009 م)، بإشراف نايف العجلوني، جامعة اليرموك ، 2010 م ، ص54.

[4] العوني ، شمس الدين : محمود درويش : القصية الفلسطينية في مهمة شعرية ، موقع مجلة الحرية، http//www.alhorriah.org//page=ShowDetailils&table=lecture

[5] درويش، محمود : في حضرة الغياب ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط2، 2009،ص89.

[6] وازن ، عبده : الغريب يقع على نفسه ، ص67.

[7] درويش ، محمود : أثر الفراشة ، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ، ط2، 2009م،ص 109-110 .

يغتالني النقاد أحيانا :
يريدون القصيدة ذاتها
والاستعارة ذاتها ...
فإذا مشيت على طريق جانبي شاردا
قالوا : قد خان الطريق
.....
وإن رأيت الورد أصفر في الربيع
تساءلوا : أين الدم الوطني في أوراقه
... ...
وإن نظرت إلى السماء لكي أرى
ما لا يرى
قالوا : تعالى الشعر عن أغراضه ..

المحور الثاني : ملامح النزعة التأملية في شعر درويش

لقد بات واضحا أن التأمل في أشعار درويش لم يأتِ هامشيا أو عارضا، إنما بدا يعبر عن اتجاه سلكه الشاعر وهو يعي متطلباته وارتباطاته، وهو يسير في هذا الاتجاه على بصيرة من أمره ، وقد برز التأمل لديه في مناح عدة ، يمكن حصرها في الآتية ؛تأمل الماضي، تأمل الحب، تأمل الحياة والموت ، تأمل الطبيعة ، تأمل الذات .

أولا : تأمل الماضي :

يحرص درويش على تأمل الماضي في المرحلة الأخيرة من تجربته الإبداعية ؛ فتأثير الماضي على نفسه ظل يلاحقه حتى سني حياته الأخيرة ، فهوـــ كما يبدوـــ لا يستطيع الفكاك من سطوته ؛ ففي تأمله الماضي تأمل لمراتع الطفولة ، وحنين لزهر الصّبار والبلوط المشوي على المواقد، واستذكار للجد ، وتعبير عن الخوف من المستقبل ، وهروب من بؤس حاضر جائع إلى تعريف الهوية، يقول:" ولد الماضي فجأة كالفطر، صار لك ماضٍ تراه بعيدا . وبعيد هو البيت الذي يسكنه وحيدا، ولد الماضي من الغياب . ويناديك الماضي بكل ما ملكت يداه من أزهار الصبّار الصفراء على طريق يصعد فوق التلال، من رائحة الحنين الشبيهة برائحة البلوط المشويّ في المواقد، ومن عباءة جدّك البنية كالتبغ الذي بلله الماء، الخفّاقة كصوت صراع ودّي بين الحكمة والعبث. ولد الماضي كأثداء كلبة توشك على الولادة، من خوفك من الغد ولد الماضي كاملا جاهزا لخطف العروس على حصان الحكاية. من كل ما أنت فيه ومن كل ما فيك من بؤس الحاضر الجائع إلى تعريف الهوية...ولد الماضي" [1].

إن بعث الماضي وتأمله يتحول إلى دواء يُستطب به ،ربما يستطيع عبر بعثه أن يستعيد العافية التي فقدها ، فيعي ما لحق به ، يقول :" سأجعل الليل إثمدا لأستعيد عافية الماضي وأداوي بها حمى أصابت الأرض المتشعبة فيَّ كالنَّجيل. وأهذي وأعرف أنّي أهذي ، ففي

[1] درويش : في حضرة الغياب ،ص46.

الهذيان وعي المريض برؤياه؛ لأنه أنبل مراتب الألم " [1]، وذلك أعمق ما يتحسسه ويخالجه في فكره من خلجات النفس مفعمة بالإحساس والشعور

ويرى درويش أن " مسافة الحرمان تجمّل الماضي وتجعله وكأنه هو هدف الأحلام التي نخترعها لكي نتغلب على وطأة الراهن الثقيلة " [2].

وهكذا ، فالدارس لشعر درويش في المرحلة الأخيرة وبخاصة في ديوانه الموسوم بـ " لماذا تركت الحصان وحيدا "(1995م) ، يجد أنه يتأمل الماضي ، تأملا واعيا ومقصودا[3]، يقول :" أنا دائما مشغول بمشروع شعري ، وليس منفصلا عن الواقع ، وإنما أحاول أن أخلق مسافة بيني وبين الراهن ؛ أي أنني لا أستطيع أن أتعامل مع الواقع الملموس ، من خلال نظرته الراهنة ،فلا بد أن أقف على أرض أكثر صلابة ، هي الماضي ،فالحاضر متذبذب ومتحرك ، وينتج ما فيه في كل ساعة ، ... ومن هنا ، رأيت أن أرضي الباقية ، هي أرض الذاكرة ، ذاكرة المكان والإنسان والشعب والتاريخ ، لذلك رويت سيرتي الذاتية ،من خلال عمل شعري يصور مرحلة الطفولة " [4].

فالقارئ لديوانه المذكور يرى أنّ تأمل الماضي سمة بارزة فيه ، فمنذ القصيدة الأولى في الديوان ذاته نجده يتأمل الماضي من على شرفة الحاضر ، ويظهر الماضي في القصيدة كتابا مفتوحا ، يرى فيه أصدقاءه يحملون نبيذ المساء ، ويرى الروايات والأسطوانات ،ثم ناقلات الجنود التي غيّرت ملامح المكان ، يقول في قصيدة " أرى شبحي قادما من بعيد ... "[5]:

أطلّ ، كشرفةِ بيتٍ ، على ما أريد
أطلّ على أصدقائي وهم يحملون بريد
المساء: نبيذاً وخبزاً ،
وبعض الرواياتِ والأسطواناتْ ...
أطلّ على نورسٍ ، وعلى شاحنات جنودْ
تغيّر وجه المكانْ.

ويظهر تأمل الماضي بوصفه محاولة يائسة لبعث أيام تلاشت كما يتلاشى دخان السجائر ، فها هو يتمنى لو بمقدوره أن يبطئ الزمن ويتأمل هذا الماضي حتى يجد إجابة لكثير من الأسئلة التي ما زالت تتزاحم في ذاكرته، يقول في قصيدة " كم مرة ينتهي أمرنا"[6] :

يتأملُ أيامَه في دخان السجائر،

---

[1] نفسه : ص46 ــ47

[2] عبد ربه، محمد: محمود درويش من المهد إلى اللحد ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان، ط2009،1م، ص168.

[3] ينظر، الشيخ، خليل: السيرة والمتخيّل ـ قراءات في نماذج عربية معاصرة ،أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان،ط1، 2009م ، ص178. .

[4] القدس العربي ، 1995/1/31م ، خلال حوار له في أبو ظبي.

[5] درويش ، محمود : لماذا تركت الحصان وحيدا ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت، ،ط4، 2009م ،ص11.

[6] نفسه: ص36.

ينظر في ساعة الجيب :
لو أستطيع لأبطأتُ دقّاتها
كي أؤخر نضج الشعير ! ...

وفي تأمله الماضي تعبير عن الحنين إلى البيت بوصفه مهد الطفولة وموطن الأحلام ، فرغم اتساع الهوة الزمانية التي تفصله عن الماضي إلا أنه ما زال يستذكر ملامح بيته المفعم بالحياة ، إذ بدا في صورة الفردوس المفقود ؛ فالياسمين يطوّق بوابة الحديد على مدخله ، والضوء ينتشر على الدرج الحجري ، وأزهار عباد الشمس تشرئب محدقة في ما وراء المكان ، والنحل يأخذ رحيقه من الأزهار ليعد العسل لجده، وفي باحة البيت بئر وصفصافة وحصان، وقد سعى عبر هذا التشكيل أن يرسم صورة تجسد ملامح البيت الفلسطيني في مظهره الريفي ،يقول في قصيدة " إلى آخري وإلى آخره" [1]:

ـ هل تعرفُ البيتَ ، يا ولدي
ـ مثلما أعرف الدرب أعرفه :
ياسمينٌ يطوّقُ بوابةً من حديد
ودعساتُ ضوءٍ على الدرج الحجريّ
وعبّاد شمسٍ يحدّق في ما وراء المكان
ونحلٌ أليف يُعِدّ الفطور لجدّي
على طبقٍ من الخيزران
وفي باحة البيت بئرٌ وصفصافة وحصانْ
وخلفَ السياج غدٌ يتصفح أوراقنا...

ويأخذ التأمل في الماضي لدى درويش بعدا آخر في قصيدة " أمشاط عاجية " إذ يحلق بخياله وروحه يعبر الزمان ، فتتجلى أمامه عكا تطعم البحر من خبزها ؛و تعيش معه زفافا أبديا ؛ فيبدوان مثل عروسين يتعانقان ؛هي تطعمه من خبزها ، وهو يفرك خاتمها منذ خمسة آلاف عام ، يقول [2]:

وروحي تطيرُ كعاملة النحلِ ، بين الأزقةِ
والبحرُ يأكلُ من خبزها، خبزِ عكا
ويفركُ خاتَمها منذُ خمسةِ آلاف عام
ويرمي على خدِّها خدَّه ...
في طقوسِ الزواج الطويل الطويلْ .

ويضفي درويش على تأمله في قصيدة " أمشاط عاجية " بعدا أسطوريا ؛ فروحه تخترق الحدود الزمانية والمكانية ؛ حيث تدلف إلى عكا التي تبدو مثل حصن مقسم إلى غرف يفوح منها عبق التاريخ المجيد ، وفي هذه الغرف التي تتوحد مع ذاته ، يرى محتويات التاريخ التي تظهر شاهدة على أصالة المدينة وعراقتها ؛ إذ يرى مرآة وأمشاطا كنعانية ، وصحنَ

[1] نفسه: ص41 ـ42
[2] نفسه: ص 82-83

حساء أشوري ، وسيفا فارسيا؛ لكنه ما يلبث أن يعود من رحلته، ويصحو من حلم جميل ، فيترك ماضيه وراءه، فيجد نفسه بلا حاضر ولا مستقبل، يقول [1]:

أدخلُ من إبطها الحجريَّ ، كما
يدخلُ الموجُ في الأبديةِ ، أعبُرُ
بينَ العصور كأنّي أعبرُ الغرفْ
أرى فيَّ محتوياتِ الزمانِ الأليفة:
مرآةَ بنتٍ لكنعانَ ،
أمشاطَ شَعرٍ من العاجِ ،
صَحنَ الحساءِ الأشوريَّ
سيفَ المدافعِ عن نومِ سيّده الفارسيّ ،
وقفزَ الصقورِ المفاجئ عن علمٍ نحو آخرَ
فوق صواري الأساطيل ...

لو كان لي حاضِرٌ آخرٌ
لامتلكتُ مفاتيحَ أمسي
لو كانَ أمسي معي
لامتلكتُ غدي كلّهُ ...

إنّ الاتجاه الواعي الذي سلكه درويش في تأمل ماضي عكا جاء يعبر عن رؤية ارتباطه بوطنه الذي يتجسد بعكا ؛ وقد راح يعرّض بالآخر الذي سلبه وطنه ،وحاول فرض سيطرته عليه عبر استناده لخرافات وأساطير ذات صبغة دينية، كما اعتمد على منطق قوة الملك الفرعوني تحتمس في فرض إرادته، من هنا ، فهو يرى أن كل محاولات الآخر التي تهدف إلى قطع أواصر الصلة بوطنه لن تفلح ، وعليه ، فهو يحذر من أشياء أخرى ستحدث لا محالة ،إذ يتنبأ بمستقبل دموي ، عندما يرى أن الغيم سيرتفع أحمر فوق صفوف النخيل، يقول [2]:

رسوتُ بمينائها لا لشيء سوى
أنّ أمي أضاعت مناديلها ههنا...
لا خرافةَ لي ههنا . لا أقايض
آلهةً أو أفاوضُ آلهةً . لا خرافةَ
لي ههنا كي أعبّئ ذاكرتي بالشعيرِ
وأسماءَ حرّاسها الواقفين على كتفيَّ
انتظاراً لفجر تُحُتمس . لا سيفَ لي ،
لا خرافةَ لي ههنا لأطلقَ أمي التي
حمَّلتني مناديلها ، غيمةً غيمةً ، فوق
ميناء عكا القديمة ... عند الرحيل!
ستحدثُ أشياءُ أخرى ،

[1] نفسه: ص83-84
[2] نفسه: ص85–86

سيكذبُ هنري على
قلاوونَ ، بعد قليلْ
سيرتفع الغيمُ أحمرَ فوق صفوف النخيلْ...

وتأمل الماضي يستثير في نفس درويش أسئلة وجودية كثيرة ما زالت تحتاج إلى إجابات ، أسئلة توحي بشدة الصدمة وهول الحدث ووقعه على نفسه ؛ إذ كيف تنقلب الأمور وتتبدل الأحوال بهذه السرعة في خلسة من الزمان ؟ بين عشية وضحاها أصبح بلا وطن ؛ فها هو يقف على محطة من العمر لا لينتظر القطار ولا ليتأمل الجمال بل ليعرف كيف حدثت قيامته ، وجن البحر وانكسر المكان ، وتشرد شعبه كما تتشرد الطيور بين الشمال والجنوب ؛ يقول في قصيدة " سقط القطار عن الخريطة "[1] :

وقفتُ على المحطة .. لا لأنتظر القطارَ
ولا عواطفيَ الخبيئة في جماليات شيءٍ ما بعيدٍ ،
بل لأعرفَ كيفَ جُنَّ البحرُ وانكسر المكانُ
كجرّةٍ خزفيّة ، ومتى ولدتُ وأينَ عشتُ ،
وكيفَ هاجرتِ الطيورُ إلى الجنوب أو الشمال.

ثانيا : تأمل الحب :

إنّ المتتبع للحب والمرأة على امتداد تجربة درويش الشعرية يجد أنه هناك تحولا في الدلالة طرأ على المفهومين لديه ؛ ففي المراحل الأولى من تجربته الشعرية ، ارتبط الحب بالوطن ، ووحد درويش بين الأم والحبيبة والأرض ؛ فظهرت في نطاق واحد ،وربما ذكر درويش في شعره أسماء حقيقية لحبيبات، لكن هذا يجب ألا يبعدنا عن المعنى الكلي الذي ينشده ، وهو التعبير عن حبّه للأرض والوطن [2].

وهكذا، فالشاعر هو إنسان ؛ يبقى بحاجة إلى الارتداد إلى ذاته وتأمل أحوالها وسماع الأصوات التي تتفاعل فيها ، وعليه ، فصحيح أن درويشا عاش حياة ناجحة على المستوى الفني من منظور نقدي ، لكنه مرّ بكثير من الإخفاقات على المستوى الاجتماعي ، فقد بات معروفا أنه لم يعش حياة مستقرة على المستوى الأسري ، كما أنه لم يثبت في مكان واحد ، حيث عاش موزعا بين كثير من عواصم العالم، كل ذلك ـ لاشك ـ جعله يفتقد الحب بمعناه الحقيقي ، ويبحث عن المرأة بمعناها المباشر ، فها هو يستحضر تجاربه الفاشلة ،ويتحدث عن الخيبة التي يعيشها بعد أن وصل إلى خريف العمر :" لكنك الآن ، إذ تشرف على حياتك إشراف البحّار على خيبته من أسرار البحر التي لا تدرك ، وتسأل : أين مينائي ؟ تحار من عودة قلبك سالما صلبا كحبة سفرجل صعبة القضم . فلماذا بكيتَ إذاً ؛ لأن العذراء لم تكن عذراء قرب الشجرة التي سبَقَكَ إليها أحد مروّضي الريح ؟ لماذا بكيتَ ثانيةً لأن الثانية لم تفتح لك الباب ، وأنت واقف أمام الزمهرير مرتجفا من الذل ، لا من البرد الذي أوقد مدفأتك ؟ ولماذا بكيتَ مرةً ثالثة ، لأن الثالثة سافرت ، دون أن تنتبه إلى أنك كنت تعانق وسادة ، لا جسدا من حرير وريش ناعم ؟ "[3].

---

1 درويش : لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي ، ص26
2 عباس، إحسان: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة،الكويت،عدد2، 1998، ص151.
3 درويش : في حضرة الغياب ، ص 128-129.

ويبدو أن فلسفته في الحب تتعارض مع رغبات الأنثى وتطلعاتها ، فهو يحبها لذاتها ، أما هي فتحتاج لمن يحب الحب ويسعى له، من هنا ، أصبح الفشل عنوانا لتجاربه في الحب:" لكن امرأة سألتك إن كنت تحبّ الحب لذاته ، فتملّصت وتخلصت من حيرة الجواب ، وقلت : أحبك أنتِ ، فألحّت : ألا تحب الحب، فقلت: أحبك أنتِ لذاتك، فانصرفت عنك لأنك لا تؤتمن على غيابها "[1].

وعبّر درويش عن الأبعاد المتصلة في اتجاهه نحو تأمل الحب في ديوان" سرير الغريبة"(1999م) فرأى أن "الفلسطيني إنسان يحب ويكره ويتمتع بمنظر الربيع ويتزوج ... ثم إن شعر الحب يمثل البعد الذاتي من أبعاد المقاومة الثقافية، فأن نكون قادرين على الكتابة عن الحب والوجود والموت والماوراء ، فهذا يعمّق من قيمتنا الوطنية وهويتنا"[2].

من هنا ، جاء ديوانه " سرير الغريبة " كتاب حبٍ من مستهله إلى قفلته الأخيرة أقرب إلى النشيد العشقي الواحد ؛ حيث توزعت بعض المقاطع فيه إلى ما يشبه الحوارية بين عاشقين ؛ قصائد حب يكتبها الشاعر لا ليعلن عشقه أو يتغزل بامرأة بعينها ، إنما يكتبها بحثا عن المعنى الأعمق للعشق وإيغالا في أسراره كحال وجدانية ووجودية [3].

وهكذا راح درويش في ديوانه " سرير الغريبة " يرفع حالة الحب ، التي يكتب أغانيه عنها إلى الشرط الإنساني الذي يتجاوز الحالات الفردية والانتماء الوطني والقومي ، فيعيد رسم صورة الحب في ضوء ما قرأه عنه، وما مرّ به[4]، فها هو يتأمل حبا ضائعا طوته الأيام ،بعد أن أصبح بعيدا(هنالك)،

ومرّ دون أن يعيره الشاعر انتباهه، يقول في قصيدة " سماء منخفضة " [5]:

هنالك حبٌ يَمرُّ بنا ،
دون أن ننتبه ،
فهو لا يدري ولا نحن ندري
لماذا تشرّدنا وردة في جدار قديم

وفي تأمله الحب المفقود ، يراه متحدا مع الغيب ؛ فيصبح الخوض في غمار الحب مغامرة غير مأمونة العواقب ، من هنا يتعجب درويش ؛ كيف يحب من يعرف الحب ؟! ؛ وهو تعجب ربما جاء يتصل من تجربة ذاتية، يقول:" كل ما أكتبه في الحب أم في سواه ، ناجم عن تجارب حية "[6]. وبذلك فهو يقدم في شعره رؤية نمطية صرّح بها الشعراء العشاق الذين عبروا عن الألم الذي لحق بهم نتيجة الإيمان بطريق الحب ، يقول في قصيدة " نمشي على الجسر " [7]:

---

1 نفسه : ص132.
2 عبد ربه : محمود درويش من المهد إلى اللحد ، ص 149.
3 وازن: الغريب يقع على نفسه ، ص35
4 نفسه: ص 36، وبلقيز، عبدالله وآخرون : هكذا تكلم درويش في ذكرى رحيله، مركز دراسات الوحدة العربية،
بيروت، 2009م ، ص148.
5 درويش ، محمود : سرير الغريبة ، رياض الريس للكتب والنشر ، ط3، 2009م ، ص 24.
6 عبد ربه : محمد درويش من المهد إلى اللحد ، ص 150.
7 درويش : سرير الغريبة ، ص28 .

فليكن الحبّ ضربا من الغيب ، وليكن
الغيبُ ضربا من الحبّ ، إني عجبتُ
لمن يعرفُ الحبّ كيف يحبُّ ،فقد
يتعبُ الحبُّ فينا من الانتظار ويمرَض
لكنّه لا يقول.

ويضفي درويش على الحب بعدا إنسانيا؛ فالباحث في كثير من قصائد "سرير الغريبة" يجد أنه يقدم امرأته في صورة (غريبة)؛ وقد حرص على التعبير عن مشاعر الحب التي تتفاعل في نفسه تجاه غريبته بالتوازي مع وصف الظروف التي جمعتهما ؛ فكلاهما قد فقد فردوسه، وكلاهما أصبح غريبا يبكي ماضيه ، من هنا ، فهو يتحد مع محبوبته بعد أن أضاع كل منهما اسمه وعنوانه، يقول في قصيدة " وقوع الغريب على نفسه في الغريب"[1]:

واحدٌ نحن في اثنين /
لا اسم لنا يا غريبة ، عند وقوع
الغريب على نفسه في الغريب ، لنا من
حديقتنا خلفنا قوة الظلّ . فلتُظهري
ما تشائين من أرض ليلك ، ولتبطني
ما تشائين . جئنا على عجلٍ من غروب
مكانين في زمن واحد، وبحثنا معاً
عن عناويننا : فاذهبي خلف ظلك ...

واللافت في كثير من قصائد ديوان "سرير الغريبة "أن درويشا سعى إلى التعبير عن فلسفته في الحب وحرص على الكشف عن أسراره عبر استحضار رموز شعرية معروفة في تاريخنا الأدبي كجميل بثينة ؛ لكنه ، لم يفعل كما فعل شعراء الغزل الذين اقتصرت قصائدهم على رسم العلاقة مع المرأة وحرصوا على التعبير عن مشاعر الشوق والحب والألم التي تتفاعل في قلوبهم ، يقول في قصيدة " أنا ، وجميل بثينة "[2]:

هل تشرحُ الحبَّ لي ، يا جميلُ،
لأحفظَهُ فكرةً فكرةً ؟
أعرَفُ الناسِ بالحبِّ أكثرُهم حَيرةً ،
فاحترقْ ، لا لتعرف نفسك ، لكن
لتُشعِلَ ليلَ بثينةَ ...

ويتخذ درويش من مجنون ليلى قناعا يتأمل عبره حبّا مضى، وعشقا طوته السنون ،فلم يبق منه سوى ذكريات ؛ وقتئذٍ كانت كلمات الحب تمثّل الوجود ، وتمنحه الحياة ، فكان مثله كمثل أي فتى مدنفٍ خالط عروقه لهيب الحب ، وكانت روح ليلاه حاضرة في كل شيء ، يقول في قصيدة " قناع ... لمجنون ليلى"[3] :

---

1 نفسه : ص36 .
2 نفسه: ص119- 120 .
3 المساوي ، عبدالسلام : جمالية الموت في شعر درويش ، دار الساقي، ط1، بيروت ،2009م ص50، نقلا من

... وكنتُ مريضاً بليلى كأيّ فتى شعَّ
في دمه الملحُ ، إن لم تكنْ هيَ
موجودةً جسداً فلها صورةُ الروح
في كلّ شيء .

ثالثًا/تأمل الحياة والموت:

حرص درويش في ديوانه الموسوم بـ "جدارية محمود درويش " على تأمل الحياة والموت ؛ لكنّ الحياة في هذا العمل الإبداعي لم تبق مقتصرة على مفهومها المعروف ، إنما برزت بمعنى آخر ؛ هو الإبداع أو القصيدة ؛ حيث بدا يشعر بدنوّ الأجل ؛ فلا بد من كتابة القصيدة التي ستحفظ سيرته بعد فراقه ؛ وهي القصيدة التي ستختزل شخصيته الإبداعية ؛ إذ رشّحها الشاعر لتكون هويته الشعرية [1].

وارتبط التأمل في هذا الديوان بالظروف الصحية التي عانها الشاعر ؛ حيث أصيب بنوبة قلبية وأجريت له عملية لإنقاذ حياته سنة 1984م ، وعملية جراحية قلبية سنة 1998م ، ويقول أثناء عمليته الجراحية الأولى: " توقف قلبي لدقيقتين ، أعطوني صدمة كهربائية ، لكنني قبل ذلك رأيت نفسي أسبح فوق غيوم بيضاء ، تذكرت طفولتي كلها ، استسلمت للموت وشعرت بالألم فقط عندما عدت إلى الحياة "[2].

وعلى الرغم من أن هناك في عصرنا كثيرا من الشعراء قد تأملوا الموت وعبروا عن هواجسهم تجاهه أمثال السياب وصلاح عبدالصبور وأمل دنقل ؛ إلا أن صلاح فضل رأى أن درويشا من أكثر هؤلاء الشعراء تحديقا في وجه الموت ، وأبعدهم تمثلا له ؛ حيث حاوره ووصفه شعريا غير مرة وأفرد له أكثر من ديوان منذ " الجدارية "[3].

وتظهر الجدارية في صورة مطولة شعرية ورحلة تأملية نحو العالم الآخر ؛عبر فيها عن انتصار إرادة الحياة (الإبداع) على إرادة الموت ؛ انتصار الحضور على الغياب ، وقد عبّر عن ذلك شعرا بصورة مباشرة ؛ إذ رأى أن الفنون هزمت الموت ؛ فصحيح أنّ الأمم طواها الغياب ، لكنها بقيت حاضرة بآثارها وأغانيها ، وهو بذلك يصرح بصورة لا تقبل الشك بالهدف الرئيس من جداريته،

مجلة دراسات العلوم الاسلامية

حوار أجري مع الشاعر محمود درويش : الشعر اختصاصي ـ جريدة أخبار الأدب، العدد 396، الأحد 11شباط / فبراير 2001م ، ص7.

[1] ينظر: عبد ربه : محمود درويش من المهد إلى اللحد، ص18، ودرويش ، محمود : جدارية محمود درويش، رياض الريس للنشر ، بيروت ، ط3، 2009م ، ص: 54-55،

[2] المرجعان نفسهما: ص 9، و54، 55، وينظر: فضل ، صلاح : محمود درويش حالة شعرية ، كتاب دبي الثقافية، الإصدار 28 ، ط1، 2009، ص 129.

[3] درويش ، محمود : جدارية محمود درويش ، رياض الريس للنشر ، بيروت ، ط3، 2009م ، ص 54-55.

يقول[1]:

هزمتكَ يا موتُ الفنون جميعُها .
هزمتكَ يا موتُ الأغاني في بلاد
الرافدين ، مِسلَّةُ المصري ، مقبرة الفراعنة ،
النقوش على حجارة معبدٍ هزمتكَ
وانتصرتْ ، وأفلتَ من كمائنك
الخلودُ ...
فاصنع بنا ، واصنع بنفسك ما تريد.

إنّ تأمل درويش الموت يأتي في كثير من الأحيان بالتوازي مع تأمله للحياة ، وارتبط تأمله بالموت بإحساسه بدنوّ الأجل ، ففي جداريته ترجمة للأحاسيس التي تفاعلت في نفسه منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها المشفي ؛ من أجل أن تجري له عملية جراحية في القلب ؛ إذ ، يستحضر حواره مع الممرضة أو الطبيبة التي رافقته إلى غرفة العمليات ، ثم يدخلنا في رحلته نحو العالم الآخر ؛ عالم البياض، وهناك يعلن انسلاخ ذاته وانشطارها إلى شطرين ؛ شطر ظل متعلقا بالحياة ، وآخر راح يحلق في الموت ، وهناك يصور لنا مشاهداته ، فيرى السماء في متناول يديه ، ويعيش طفولة أخرى مختلفة عن الطفولة التي عاشها في حياته، يقول[2]:

هذا هو اسمكَ/
قالتِ امرأةٌ ،
وغابتْ في الممرِّ اللولبيّ
أرى السماءَ هناكَ في متناولِ الأيدي .
ويحملني جناح حمامة بيضاء صوبَ
طفولة أخرى.

وفي تأمله الموت يقترب من الموتى ويتعرف إلى أحوالهم ، فهم يتحللون من ارتباطات الحياة والتزاماتها ونواميسها ؛ فلا يكبرون ، ولا يعبأون بالزمن ، ولا يشعرون بموت أو حياة ، كلهم سواسية تحت مظلة الموت، فلا (أنا)، ولا (هو)، ولا (أنت)، لقد ذابت القوانين التي فرضتها الحياة ، وتلاشت الاعتبارات التي وضعها الأحياء؛ وهو بذلك يعقد مقارنة بين الحياة والموت بصورة غير مباشرة ، ويقدم الموت في صورة ينماز فيها على الحياة ، يقول[3]:

ورأيتُ ما يتذكّر الموتى وما ينسون ...
هم لا يكبرون ويقرأون الوقت في
ساعات أيديهم . وهم لا يشعرون
بموتنا أبدا ولا بحياتهم . لا شيءَ
مما كنت أو سأكون . تنحلُّ الضمائرُ

---

1 نفسه : ص 9.
2 نفسه : ص 27.
3 نفسه : ص 28.

كلها . "هو " في "أنا " في " أنت "
لا كلٌّ ولا جزءٌ. ولا حيّ يقول
لميّتٍ : كنّي !.

إن إحساس درويش العالي بالزمن في هذه المرحلة من حياته جعله يتأمل الوقت في عالم الموت (السديم) بصورة لافتة ؛ فالوقت صفر في هذا العالم الذي لا عدم فيه ولا وجود ، وفي هذا الشعور يتحول الموت إلى راحة من مشكلات الحياة وظروفها ، يقول[1]:

الوقتُ صفرٌ . لم أفكّر بالولادة
حين طار الموتُ بي نحو السديم ،
فلم أكنْ حياً ولا ميتا ،
ولا عدَمٌ هناك ، ولا وجودُ.

وعلى الرغم من أن درويشا يظهر استسلامه لحقيقة الموت ، و يرى فيه راحة لكنه ما يلبث في غير مقطع من مقاطع جداريته أن يظهر تمسكه بالحياة ؛ إذ يطلب من الموت أن يمنحه فرصة من العمر ؛ علّه يستطيع أن يكمل بعض الأعمال التي بدأها ، وحتى يجد إجابات لكثير من الأسئلة الوجودية التي تتزاحم في ذهنه ، وهو يستحضر الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد بوصفه رائد الوجودية الذي كان يتحايل على الموت بالحياة ، يقول[2]:

وأريدُ أن أحيا ...
فلي عملٌ على ظهر السفينة .
.....
انتظرني ريثما أنهي
قراءةَ طرْفةَ بن العبد . يُغريني
الوجوديون باستنزاف كل هُنيهةٍ
حريةً وعدالةً ، ونبيذَ آلهةٍ .../

ومهما يكن من أمر ؛ فقد راح في جداريته يتأمل الموت، ويظهر فلسفته فيه في اتجاهين متوازنين؛ فهو من جهة، يعبر عن حقيقة الموت وجبروته، ومن جهة أخرى يصف ضعفه أمام إرادة الحياة التي تتجسد في الأفعال والأقوال التي ليس له سلطة عليها ، يخاطب الموت ويظهر له ضعفه ، يقول[3]:

... فمثلك لا يفاوضُ أيَّ
إنسان ، ومثلي لا يعارضُ خادمَ
الغيبِ . استرح ... فربما أُنهكتَ هذا
اليوم من حرب النجوم . فمن أنا
لتزورني ؟ ألديكَ وقتٌ لاختبار

---

1 نفسه: ص48-49.
2 نفسه : ص54 .
3 محمود درويش ، كلمة ألقاها درويش في حفلة توقيع ديوانه " كزهر اللوز أو أبعد " في رام الله تصدرت العدد
85(2005) من فصلية الكرمل الثقافية ،الرابط:
http//www.alsadaqa.com/vb/showthread.php=35019

قصيدتي . لا . ليس هذا الشأنُ
شأنكَ . أنت مسؤول عن الطينيّ في
البشريّ ، لا عن فعِله أو قوْلهِ /.

رابعا : تأمل الطبيعة :

يرى درويــش في سياق رده على النقاد والدارسين الذين أنكروا عليه اتجاهه التأملي في ديوانه "كزهر اللوز أو أبعد " أن من حق الشاعر الفلسطيني أن يجلس على تلة ويتأمل الغروب ، وأن يصغي إلى نداء الجسد ، أو الناي البعيد ، وأن الشاعر الفلسطيني في المقام الأول ؛ كائن بشري يحب الحياة ، وينخطف بزهر اللوز ، ويشعر بالقشعريرة من مطر الخريف الأول"[1]

وليس معنى ذلك أن الطبيعة كانت غائبة عن شعر درويش من قبل ؛ فهي تكاد تكون حاضرة حضور قصائده ، لكن حضورها كان جزئيا أو مساندا يتماهى مع فسيفساء قصيدته ويشدّ عضدها ، بحيث لم تكن الطبيعة موضوعا قائما بذاته ، كما هي في ديوانه" كزهر اللوز أو أبعد "،بل كان يستحضر كثيرا من مكوناتها وتفاصيلها في سياق التعبير عن وطنه وقضيته؛ في سبيل تجسيد معاني المقاومة والصمود والمعاناة.

ويبرر انحيازه للطبيعة قائلا :" لكنّك تنحاز ، لأنك ريفي التكوين ، إلى الأشجار التي تنعكس في ماء النهر ، وإلى الحمام البر ـ جوي ،وتتوقف طويلا عند سوسنة نبتت ، وحدها خارج الأحواض ... لا لأنها مثلك غريبة بين الأزهار ، بل لأنها تعتمد على نفسها في نمو بلا رعاية [2]".

والباحث في بعض عناوين القصائد الواردة في ديوان " كزهر اللوز أو أبعد " يجد أنها تحمل دلالات تأملية ؛ فمن هذه العناوين ـ على سبيل المثال ـ " حين تطيل التأمل "[3]" برتقالية "[4]، "لوصف زهر اللوز "[5]" أحب الخريف وظل المعاني " [6]" وأما الربيع "[7]،كنت أحب الشتاء "[8].

ويسعى درويش في تأمله لعناصر الطبيعة أن ينقل تأثيرها على نفسه ،إذ ، يترجم لنا المشاعر التي تنتابه ، والتحولات التي يعيشها ؛ فتارة ، يتأمل وردة تنبت على الحائط ؛ فإذا بها، تبث في نفسه الأمل في الحياة ، وتارة أخرى يتأمل النجوم ويعدّها ، فإذا هي ، تثير في نفسه براءة الطفولة ، يقول في قصيدة " حين تطيل التأمل "[9] :

---

1 درويش: في حضرة الغياب، ص89.
2 درويش ، محمود : كزهر اللوز أو أبعد ، رياض الريس للكتب والنشر ، ط3، 2009م ، ص21.
3 نفسه :ص37.
4 نفسه :ص47 .
5 نفسه :ص55.
6 نفسه :ص57.
7 نفسه :ص59.
8 نفسه :ص21-22.
9 نفسه :ص38.

حين تطيلُ التأملَ في وردةٍ
خرجت حائطاً ، وتقول لنفسكَ :
لي أملٌ في الشفاء من الرملِ
يخضرُّ قلبُكَ ...
.....
حينَ تعدُّ النجوم وتخطئ بعد
الثلاثةَ عشرَ ، وتنعسُ كالطفل
في زرقةِ الليلِ /
يبيضُّ قلبُكَ ...

ويلجأ درويش في كثير من قصائده إلى تأمل الطبيعة ؛ للتعبير عن فلسفته تجاه العملية الإبداعية ، وقدرة المبدع على توظيف خياله وإيجاد الملامح المشتركة بين المتباعدات في الظاهر ؛ حيث يتأمل البرتقالة ، عبر عقد علاقة مشابهة مع الشمس؛ فتظهران(البرتقالة/ الشمس) يكمل كل منهما الآخر في دورة الحياة، وهو هنا، يعتمد على فكرة التناسخ ،فالبرتقالة تشبه الشمس في لونها وشكلها ، وكلاهما يمد الإنسان بفيتامين، يقول في قصيدة " برتقالية " [1]:

لونها صِفة الشمس في نومها
لونها طعمها : حامضٌ سُكّريٌّ ،
غنيٌّ بعافية الضوءِ والفيتامين
وليس على الشعر من حرجٍ إنْ
تلعثم في سردهِ ، وانتبه
إلى خللٍ رائعٍ في الشبَهْ !

ولا يخلو تأمل درويش للطبيعة من الدلالات الرمزية ؛ فالمتمعن في عنوان ديوانه " كزهر اللوز أو أبعد " الذي يأتي عنوانا لواحدة من قصائده في ثنايا الديوان ، يجد أن زهر اللوز هو معادل رمزي لشعره، لكنه يرى في شفافية هذا الزهر وبياضه وخفته وضعفه ما لا يستطيع تحقيقه في الكلام والحياة ، وهو إذا يتأمل هذا الجمال الأخاذ يعبرعن عجز شعره من بلوغ وصفه ، يقول [2]:

لوصف زهر اللوز ، لا موسوعة الأزهار
تسعفني ، ولا القاموس يسعفني...
سيخطفني الكلامُ إلى أحابيل البلاغة م
والبلاغةُ تجرحُ المعنى وتمدحُ جرحَهُ ،
كمذكّر يملي على الأنثى مشاعرها /
فكيف يشع زهر اللوز في لغتي أنا

[1] نفسه :ص47.
[2] الجبر، خالد عبدالرؤوف : غواية سيدورى قراءات في شعر محمود درويش، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2009م،ص251.

وأنا الصدى ؟
هو الشفيف كضحكة مائية نبتت
على الأغصان من خفر الندى...
هو الخفيف كجملة بيضاء موسيقية
هو الضعيف كلمح خاطرة
تطلّ على أصابعنا /

ونكتبها سدى ..

خامسًا: تأمل الذات:

لا شك أن ذات الشاعر بقيت حاضرة في قصائده التأملية بصورة عامة ، لكننا نجده في كثير من الأحيان ينسج قصائد كاملة يتأمل فيها ذاته في اتجاهين ، الذات الإنسانية ، والذات الشاعرة [1]، حيث بدا أكثر وعيا والتفاتا إلى صوت الذات ،إذ، أشار إلى ذلك قائلا :" أنا شديد الانتباه لهذه المسألة وإلى الالتفات إلى صوت الذات ، صوت الأنا ، وليس بمعنى الأنا الضيقة ، فالأنا تحتوي في داخلها أكثر من أنا فهي تتشظى،وعلى الشعر أن ينطلق في إصغاء دقيق للأنا في تفاعلها مع الأنوات "[2].

وإن الباحث في بعض قصائد درويش وبخاصة في ديوانه المعنون" أثر الفراشة " يجد أنه يتأمل ذاته الإنسانية في قصائد كاملة ،فنجده فيها يعبر عن تمنياته وينقل مشاعر الأمل تارة وأحاسيس الألم تارة أخرى ، وهي نزعات تتفاعل في داخل البشر بعامة ، فها هو يتأمل ذاته فيرى أنها محبطة من الواقع تتمنى أن تتحول إلى حجر لا يحنّ إلى شيء، ولا ينتظر شيئا ولا تأبه بحركة الزمن، يقول في قصيدة " ليتني حجر "[3]:

لا أحنُّ إلى أيّ شيءٍ
فلا أمسِ يمضي ولا الغدُ يأتي
ولا حاضري يتقدّمُ أو يتراجعُ
لا شيء يحدُث لي ! .

ويشكو درويش في تأمله ذاته الإنسانية من تلاشي صوته الإنساني في هذا العالم الذي تحول إلى غابة لا تأبه بالضعفاء ولا تنفع فيها كلمة الحق ، وربما هو إحساس يعيشه كثير من المبدعين الذين لا يجدون تأثيرا لإبداعاتهم على الواقع ، فما أجمل الفن إذا كان له أثرٌ إصلاحي ! ، يقول في قصيدة " الغابة "[4]: لا أسمع صوتي إلا إنْ

خلتِ الغابةُ مني
وخلوتُ أنا من صمتِ الغابة ! .

---

1 العوني ، شمس الدين : محمود درويش : القضية الفلسطينية هي مهمة شعرية ، موقع مجلة الحرية: http//www.alhourriah/?page=ShowDetails&Id=705&table=lecture

2 درويش : أثر الفراشة ،ص 23.

3 نفسه، ص 32.

4 نفسه، ص 47.

وهو إذ يتأمل ذاته يجدها متمسكة بالحياة ، حريصة على الاستمتاع بكل لحظة فيها ، لا تأبه بما تخفيه أستار الغيب لها ، يقول في قصيدة " بقية حياة "[1]:

إذا قيل لي : ستموت هنا في المساء
فماذا ستفعل في ما تبقّى من الوقت ؟
ـ أنظرُ في ساعة اليدِ
أشربُ كأس عصيرٍ
وأضمُ تفاحةً
وأطيلُ التأملَ في نملَةٍ وجدَتْ رزقها ...

ويتأمل درويش ذاته الشاعرة في غير ديوان من دواوينه الشعرية ؛إذ يحرص على تتبع المراحل التي مرت بها تجربته الشعرية والكشف عن علاقته باللغة بوصفها أهم أدواته الشعرية ، وهذا يعكس مدى اهتمامه بتطوير شعره والنهوض به وصبغه بسمات الحداثة ، يقول :" تكبر على مهل وببطء .تودّ لو تقفزُ أسرع أسرع إلى غدٍ تروّض فيه الكلمات ، وتقول شعرا حماسيا مدفوعا بقوة الحب وبواجب الدفاع عن القبيلة ، فينفتح لك السريّ الخفي بانفتاح الكلمات على الوعي ، فلا تكون لعبة كما ظننت ، بل تحديق الظاهر إلى الباطن، وتجلّي الباطن في الظاهر ، فتكونها وتكونك ، فلا تعرف التمييز بين القائل والقول ، ستسمي البحر سماء مقلوبة ، وتسمّي البئر جرةً لحفظ الصوت من عبث الريح ، وتسمي السماء بحرا معلقا بالغيوم "[2].

فها هو يتأمل ذاته الشاعرة والمراحل التي يمر بها قبل أن تخرج القصيدة إلى حيز الوجود ،فتظهر نفسه خاضعة لإيقاع الشعر؛ حيث لا يستطيع الفكاك من أسره ، ثم يكشف عن تفاعله مع الأشياء وإحساسه العالي بكينونتها، يقول في قصيدة " يختارني الإيقاع "[3]:

يختارني الإيقاع ، يشْرقُ بي
أنا رجع الكمان، ولست عازِفَهُ
أنا في حضرة الذكرى
صدى الأشياء تنطق بي
فأنطقُ ....

ويتأمل ذاته الشاعرة فيجد أنها ما كان لها أن تكون مصابة بجنّ المعلقة الجاهلية لو أنها لم تفتح عينيها على البحر وتستشعر آلام شعبها ، وفي ذلك اعتراف بالقيمة الفنية للمعلقات الجاهلية التي ترمز للشعر، وتأكيد على أن البحر يشكل مصدر إلهام له في البدايات الأولى لتجربته الإبداعية، يقول في قصيدة " لاعب النرد " [4]:

كان يمكنِ ألاّ أكون مصابا
بجنّ المعلّقة الجاهليةِ
لو أنّ بوابةَ الدار كانت شماليةً

---

[1] درويش : في حضرة الغياب ، ص30- 31

[2] درويش ، محمود : لا تعتذر عما فعلت ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط1، 2004 م ، ص 15.

[3] درويش : لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، ص 39.

[4] نفسه ، الصفحة نفسها.

لا تطلُّ على البحرِ .

نتائج البحث :

1. جاءت النزعة التأملية تمثل ظاهرة لافتة في أعمال درويش الأخيرة التي بدأت بديوانه " لماذا تركت الحصان وحيدا " 1995م وانتهت بديوانه الأخير " لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي" 2009م. 2. هناك مجموعة من المنطلقات أسهمت في شيوع النزعة التأملية في شعر درويش ، أبرزها حرص الشاعر على إضفاء النزعة الإنسانية على أشعاره ، وانشغاله بتطوير مشروعه الفني .
3. إن حرص درويش على تأمل الماضي إنما هو تعبير عن الحنين لمسرح الطفولة ، وقد جاء يمثل هروبا من بؤس الحاضر والخوف من المستقبل .
4. إن تأمل درويش للحب في ديوانه " سرير الغريبة " يتصل بتجارب حية عاشها ، إضافة لقراءات في الأعمال الأدبية والأساطير التي تتصل بالشعراء العشاق ؛ أمثال مجنون ليلى ، وجميل بثينة .
5. جاء تأمل درويش للحياة والموت في ديوانه الموسوم بـ"الجدارية " يتصل بظروف صحية ألمت به ، وقد حاول في الديوان أن يواجه الموت بالحياة التي جاءت معادلا موضوعيا للإبداع .
6. لجأ درويش في كثير من قصائده إلى تأمل الطبيعة؛ للتعبير عن فلسفته تجاه العملية الإبداعية ، وقدرة المبدع على توظيف خياله وإيجاد الملامح المشتركة بين المتباعدات في الظاهر.
7. لا شك أن ذات الشاعر بقيت حاضرة في قصائده التأملية بصورة عامة ، لكننا نجده في كثير من الأحيان ينسج قصائد كاملة يتأمل فيها ذاته في اتجاهين ، الذات الإنسانية ، والذات الشاعرة .

المصادر والمراجع :

أولا : المصادر مرتبة زمنيا حسب الصدور :

1. سرير الغريب، محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر ، ط3، بيروت، 2003م .
2. لا تعتذر عما فعلت، محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر ، ط1، بيروت 2004م .
3. لماذا تركت الحصان وحيدا ، محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر ،ط4،بيروت ، 2009م .
4. أثر الفراشة ، محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ، ط2، 2009م،
5. درويش، محمود، جدارية محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر ، ط3، بيروت، 2009م .
6. حالة حصار 2002م ، رياض الريس للكتب والنشر ، ط3، بيروت 2009م .
7. كزهر اللوز أو أبعد، محمود درويش، 2005م،رياض الريس للكتب والنشر ، ط3، بيروت 2009م .
8. في حضرة الغياب، محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر ، ط2، بيروت 2009م .
9. أثر الفراشة،محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر ، ط2، بيروت 2009م .

10. لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي ، محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر ، ط1، بيروت 2009م .

ثانيًا :المراجع حسب الألف باء:

1. ابن منظور ، لسان العرب، لابن منظور ت(711ه)، دار صادر ، بيروت ، ط1، د.ت ، مادة (أمل).
2. بلقيز ، عبدالله وآخرون : هكذا تكلم درويش في ذكرى رحيله ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2009م .
3. الجبر ، خالد عبدالرؤوف : غواية سيدورى قراءات في شعر محمود درويش، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1 ،2009م.
4. الجردي، وحدة أمين: أدب التأمل عند المنفلوطي دراسة في نصوص النظرات والعبرات ،دار الفكر اللبناني،ط1، 2005م.
5. دراج ، فيصل : ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش ، مجلة الكرمل ، عدد90 ، 2009م.
6. الشيخ ، خليل: السيرة والمتخيّل ـ قراءات في نماذج عربية معاصرة ،أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان ،ط1 ، 2009مـ
7. عباس ، إحسان : اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، عالم المعرفة ، الكويت ، عدد 2، 1998.
8. عبد ربه ، محمد : محمود درويش من المهد إلى اللحد ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1، 2009م .
9. العوني ، شمس الدين : محمود درويش : القضية الفلسطينية هي مهمة شعرية ، موقع مجلة الحرية
http//www.alhourriah/?page=ShowDetails&Id=705&table=lecture
10. فضل ، صلاح : محمود درويش حالة شعرية ، كتاب دبي الثقافية ، الإصدار 28 ، ط1، 2009م.
11. المساوي ، عبدالسلام : جمالية الموت في شعر درويش ، دار الساقي ، ط1، بيروت ،2009م.
12. النجار، مصلح : التركيب اللغوي للصورة الشعرية عند محمود درويش ، وزارة الثقافة ، عمان، ط1، 2007م .
13. وتد، عايدة خليل فحماوي: في حضرة غيابه " تحولات قصيدة الهوية " في شعر محمود درويش، مجمع القاسمي للغة العربية ، مكتبة كل شيء ، حيفا ، 2013م ، ص200.
14. وازن ، عبده : الغريب يقع على نفسه ، حوار مع الشاعر محمود درويش ، دار رياض الريس ، ط1 ، بيروت ، 2006م.
15. الوسيط ، مادة (أمل).

ثالثًا/الدوريات والحوارات:

1) حوار أعدَّه عبد السلام المساوي مع الشاعر محمود درويش : الشعر اختصاصي ـ جريدة أخبار الأدب ، العدد 396، الأحد 11شباط / فبراير 2001م.
2) حوار أعدَّه عباس بيضون مع محمود درويش في جريدة " السفير " اللبنانية ، 2003/11/12م.

3) العوني ، شمس الدين : محمود درويش، عنوانه : القضية الفلسطينية هي مهمة شعرية ، في أبو ظبي، موقع مجلة الحرية،
http//www.alhorriah.org//page=ShowDetailils&table=lecture،
4) درويش، محمود ،كلمة ألقاها درويش في حفلة توقيع ديوانه " كزهر اللوز أو أبعد " في رام الله تصدرت العدد 85، في(2005) من فصلية الكرمل الثقافية، الرابط:
http//www.alsadaqa.com/vb/showthread.php=35019
5) حوار أعدّه محمود عبدالكريم مع محمود درويش ، تضمن موضوع الصورة الشعرية وتركيبها اللغوي عند محمود درويش، ثم بثه التلفزيون العربي السوري بتاريخ 1997/11/1م.
6) حوار أجراه مع درويش عباس بيضون في جريدة " السفير " اللبنانية ، 2003/11/12م.
7) درّاج، فيصل: ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش، مجلة الكرمل، عدد90 ، 2009م.
8) القدس العربي، عنوان لحوار لمحمود درويش قدَّمه في أبو ظبي. في تاريخ 1995/1/31م.

رابعًا/الرسائل الجامعية والأطاريح:

1. المهداوي ، صفاء عبدالفتاح : الأنا في شعر محمود درويش، دراسة فنية سسيوثقافية من (1995–2009 م)، بإشراف نايف العجلوني جامعة اليرموك ، 2010 م .

مجلة دراسات العلوم الاسلامية